

الكتاب المحدثون

عصر الانحطاط

ميزة النثر

كثرة المتطفلين عليه . سقوطه .

لم يكن النثر اوفر حظاً من الشعر فيعدو عنه الاسفاف، وكلاهما رزى ببلاغته، ومضى عهد فرسانه المجلين . وربما كانت مصيبة النثر اقدح، وخطبه اعم، لان عدد المتطفلين عليه اكثر من عدد المتطفلين على الشعر . وكانت النكبة في انشاء المترسلين اشد منها في انشاء المصنفين .

انشاء المترسلين

تعلقهم بالالفاظ . عجزهم عن توليد المعاني . طغت
العامية على الفصحى في الدواوين . فساد اللغة . التكلف .
السخف .

اصطبغ انشاء المترسلين في العصر العباسي الثالث بالوان الشعر، فغلب عليه الخيال
والمجاز، وقامت سجعاته مقام القوافي فلم يكن ينقصه غير الاوزان . ومتى افرغ
النثر في قالب الشعر ضاقت أغراضه، وتحددت موضوعاته، فما يصلح الا للاشياء التي
يطفو عليها اخیال الشعري كالوصف والرسائل ومقدمات الكتب والمقامات وما اشبه
ذلك . واما المباحث العلمية والادبية والتاريخية، فتنبو عنه، ولا تخضع له الا على
كره منها ونفار .

والاسلوب الشعري المنسق صعب القيادة، لا يستكين الا لكتاب بليغ، مستطيل
على الالفاظ، بارع في المجاز . وكان الكتاب العباسيون فيهم ملكة البلاغة، ولهم
حسن البيان، فصاروا بهذا الاسلوب الى اعلى منازلهم، وناقسوا به النثر الفني المرسل .
على ان هذه البلاغة ما لبثت ان تداعت في اواخر العصر الماضي، فاسف نثر المترسلين
وجفت صناعتهم، وثقلت الفاظهم، وقبحت محسناتها . ثم وافي هذا العصر، فاحتضرت
البلاغة بين يديه . وحاول كتابه ان يجاروا من تقدمهم في الصناعة، واحتدوا على
طريقة القاضي الفاضل من التزام التورية والسجع والجناس؛ لان في صناعة الالفاظ
ستراً لعجزهم عن توليد المعاني واختراعها، فلم يستقم لهم الامر، وجاءت عباراتهم
تمطى متثاقلة، وتثاقب . وما انقضى صدر الدولة العثمانية، وسادت التركية في
الدواوين، وطغت العامية على الفصحى، حتى لفظت البلاغة نفسها . وصار الكتاب لا
يطبقون الافصاح عما في ضمائرهم، واعتاصت عليهم الصناعة، وفسدت اللغة في
عباراتهم، واكثروا من الحشو والكلام الفارغ . وتكلفوا السجع على ضعفهم، فجاء

سخيفاً نابياً، متقللاً في اماكنه .

واشهر مترسلي هذا العصر من عاشوا في دوة الممالك، وكتبوا نساطينها،
كالقاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وشهاب الدين محمود الحلبي ، وشهاب الدين بن
فضل الله العمرى .

اناء المصنفين

اجل من انشاء المترسبين . اقرب الى اضع . فساده في عهد لغثانيين .

واما انشاء المصنفين فلم تعمه الصناعة اللفظية كما عمت فن الترسل، فقد لبث طائفة منهم يقصدون الى الاسلوب المرسل فاحسنوا في ذلك . ولكن لم تتفر لهم بلاغة اسلافهم، فجاء انشاؤهم في الجملة على شيء من اللين، ولم يخلص من التعقيد والتطويل . ثم دب الفساد في لغتهم كما دب في لغة المترسلين فكاد يكون النثر عامياً، كما يبدو في قصص بني هلال، وتاريخ ابن اياس^(١) وما شاكل ذلك .

(١) هو ابن اياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة، وله بدائع الزهور في وقائع الدهور، دوّن فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ . (١٥٢١ م) ولغته ضيقة اقرب الى العامية منها الى الفصحى .

العلوم والاداب

الحركة العلمية الادبية في عهد المايك محمودة . ضعفه
في بني عثمان .

كانت الحركة العلمية في دولة المايك محمودة لكثرة المدارس عندهم، واقبال العلماء على مصر والشام، وانصرفهم الى التأليف باكتاف السلاطين . ولكن مصنفاتهم قل فيها الاستنباط لتصلب الاذهان، فجاءت في معظمها جمعاً وتحشية وشرحاً . فمن الذين اشتغلوا بالنحو ابن مالك الطائي، وله الفيته الشهيرة، وتسهيل الفوائد، والكافية الشافية، ولامية الافعال . ومنهم ابن هشام وله قطر الندى وبل الصدى، ومغني اللبيب عن كتب الاعاريب، والإعراب عن قواعد الأعراب . ومنهم ابن آجرؤم وله الأجرؤمية .

ومن الذين اشتغلوا بتصنيف المعاجم اللغوية ابن منظور صاحب لسان العرب جمع فيه تهذيب الازهري، ومحكم ابن سيده، وصحاح الجوهري، وجمهرة ابن دريد، ونهاية ابن الاثير، وجعله في عشرين مجلداً . ومنهم الفيروزابادي وله القاموس المحيط في اربعة مجلدات . ومنهم السيوطي، وله الزهر في جزئين يشتمل اولها على البحث في الفاظ اللغة وفصيحا وضعيفها ورديثها، والمغرب والمولد والحقيقة والحجاز والقلب والابدال وما اشبه ذلك . ويشتمل الثاني على اوزان الكلام، وابنية الافعال ومعرفة التصحيف والتحريف، ومن محتج بهم من شعراء العرب وغير ذلك .

وكان حظ التاريخ حسناً، والنشاط له عظيماً، فظهرت فيه كتب جليلة يصح الركون اليها . وكان للمغرب يد على فلسفة التاريخ في مقدمة ابن خلدون . فمن الذين اشتهروا في مصنفاتهم التاريخية ابن خلكان، وله وفيات الاعيان في مجلدين؛ وهو كتاب نفيس، وله ذبول اشهرها فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي . ومنهم صلاح الدين الصفدي وله الوافي في الوفيات، وهو معجم للتراجم في خمسين جزءاً . ومنهم

ابو الفداء، وله المختصر في اخبار البشر، تزيخ عام في اربعة اجزاء، ومنهم شمس الدين الذهبي، وله تزيخ الاسلام في اثني عشر مجلداً، ومنهم ابن خلدون، وله كتاب العبر في ستة مجلدات .

وكذلك اجغرافية، فان اصحابها ما انفكوا يعانون الرحلات في سبيلها، واشهرهم القزويني، وله عجائب المخلوقات في الفلك واجغرافية الطبيعية عند العرب . وابن بطوطة الرحالة المشهور، وله كتاب تحفة النظائر، ويعرف برحلة ابن بطوطة . والمقرئزي وله خططه التي بين فيها اقاليم مصر واحوال سكانها، واوردها من الاخبار والحوادث التاريخية طائفة حسنة، وهي في مجلدين كبيرين .

ونهب علم الاجتماع في مقدمة ابن خلدون . وكان للعلم الطبيعي حظ حسن في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري .

واشتغل جماعة من العلماء بوضع الكتب الجامعة لشتى العلوم والآداب، كالتؤيري وله كتاب نهاية الارب في فنون الادب، يزيد على ثلاثين مجلداً، ويبحث في الفلك، وتقويم البلدان، والتاريخ الطبيعي، واللغة والآداب . وكشهاب الدين بن فضل الله العمري، وله مسالك الابصار في ممالك الامصار، يتضمن اجائاً في التاريخ والجغرافية، والتاريخ الطبيعي . وكالقلقشندي، وله صبح الاعشى في صناعة الانشاء، وتقويم البلدان . وكالابشيهي، وله المستطرف في كل فن مستظرف، يشتمل على ادب وسياسة واجتماع وتاريخ وجغرافية، وتاريخ طبيعي ونحو ذلك .

ولما ادال الله العثمانيين، واصبحت مصر والشام في حكمهم، ضعفت فيهما الحركة العلمية، واقفل معظم المدارس، وانتهت اوقافها . ثم اخذت التركية تغزو العربية وترحمها في عقردارها، فغلبت طمطمانية الاعجام على المصريين، وقل المشتغلون بالعلم لقله انصاره، واتقطاع وسائله . ولم يكن للتصنيف والمصنفين شأن يذكر لولا تلك الشهب التي كانت تلوح الفينة بعد الاخرى، فتنير سواد هذا الليل الدامس، ثم يتوارى شعاعها في الحجب الكثيفة، فيستبد الظلام . فمن هذه الشهب عبدالقادر البغدادى صاحب خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، شرح فيه شرح شواهد الكافية في النحو،

وضمنه الجائز في التاريخ والادب، وجعله اربعة اجزاء . ومنها الحبان، وله حاشيته على شرح الاثموني على الفية ابن مالك . ومنها المطران جرمانوس فرحات، وله بحث المطالب في الصرف والنحو، وهو كتاب مفيد حسن التبويب . ومنها عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي، وله معاهد التنصيص شرح فيه شواهد تلخيص المفتاح في علم المعاني والبيان، وترجم لاصحابها، وذكر طرفاً من مختار شعرهم، وشعر غيرهم . ومنها شهاب الدين الحفاجي، وله شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل . ومنها السيد مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس، معجم كبير في اربعة عشر مجلداً يشرح قاموس الفيروزابادي .

وعرف من المؤرخين المجيبي، وله خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر . والمقري التلمساني، وله نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب، في اربعة مجلدات ضخمة . وحاجي خليفة، وله كشف الظنون، معجم لاسماء المصنفات العربية، رتبها على الابدانية، وذكر فيه المصنف وغرض كتابه، وما له من شروح، واصحاب هذه الشروح .

واشتهر من مؤلفي الكتب الجامعة بهاء الدين العاملي صاحب الكشكول، فيه ادب ورياضيات، وفلسفة وعلوم اسلامية .